

العلاقات السياسية بين الخليفة المستنصر بالله

ومظفر الدين كوكبري

(١٢٢٣هـ/١٢٢٦ - ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

حسين حنيس جاسم (*)

المقدمة:

يعد الخليفة المستنصر بالله واحداً من بين أكثر الخلفاء العباسيين من العصر العباسي الأخير الذين اهتموا بجمع كلمة المسلمين وتوحيدهم، لأن الخلافة الإسلامية أصبحت تتألف من عدد من دويلات الأطراف المفككة ولتتازع مع بعضها لأسباب توسعية بين القوية والضعيفة منها، وليس للخليفة العباسي عليها من سلطان سوى من الناحية الاسمية والدينية، على الرغم من أن الخليفة المستنصر بالله جاء في فترة (انتعاش الخلافة) العباسية وتخلصها من النفوذ السلجوقي لتلطف أنفاسها، إلا أنها كانت مهددة أيضاً بخطر خارجي متعاظم قدم إليها من جهة الشرق هو الخطر المغولي الذي صار يهدد كل العالم الإسلامي، فبدأ يدق أبواب الخلافة العباسية بشكل غزوات غرضها جس نبض قوة الخلافة ومدى قدرتها في المواجهة مستقبلاً. وقد شارك الخليفة المستنصر بأفقه هذه الهموم والأخطار أمير أربل (مظفر الدين كوكبري) ٥٨٦هـ /

(*) مدرس مساعد كلية التربية/ جامعة تكريت

١١٩٠م - ٦٣٠هـ / ١٢٣٠م الذي تعرض هو الآخر لهذه الهجمات منذ سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م). فكانت أربل المحك الأول وخط المواجهة لغزوات المغول المتكررة. فضلا عن تعرض أمارته لاطماع الغير، فقد طمع فيها (بدر الدين لؤلؤ) صاحب الموصل وطمع فيها (الاشرف موسى) صاحب دمشق، كذلك (خوارزم شاه) صاحب الدولة الخوارزمية قبل سقوطها على يد المغول لان أماره أربل ولدت في عصر أصدق وصف له هو (عصر الغلبة) لان كل صاحب وحدة سياسية كبيرة أو صغيرة يجد في نفسه المقدرة الحربية من التوسع على حساب جيرانه لا يتوانى في شن الحرب على المستضعفين منهم، فكانت المنطقة في صراع وتنازع مستمر، فاشترك المستنصر بالله ومظفر الدين كوكبري بنفس الخطر وعدم الاطمئنان للوضع السياسي الدولي المحيط بهما، مما دفعني إلى دراسة جذور هذه العلاقات السياسية بين الخليفة المستنصر بالله ومظفر الدين كوكبري في ظل هذه الظروف السياسية والأخطار المحلية والخارجية، ومدى استمرار هذه العلاقات ونتائجها لكلا الطرفين.

الباحث

تمهيد عن العلاقة بين الخليفة الناصر لدين الله ومظفر الدين كوكبري^(١):
كان مظفر الدين تابعا لصلاح الدين الأيوبي وخاضعا له ولم يكن قادرا أن يكون حرا التصرف بأمارته حتى توفي صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) فاصبح حرا مستقلا وبإمكانه إقامة علاقات سياسية مع من يشاء من الدول، ومنها الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر لدين الله، على الرغم من أن هذه العلاقات الإيجابية مع بغداد كانت متأخرة نسبيا ولم تتجاوز الشكليات في بداية الأمر، حيث وضع مظفر الدين اسم للخليفة الناصر على نقوده دليلا على الاعتراف بتبعيته للخليفة، وقد استمر هذا الوضع بينهما حتى جاءت اللحظة المناسبة حين فكر مظفر الدين بضرورة إقامة علاقات جديدة ووطيدة مع مركز الخلافة العباسية^(٢). التي كانت هي الأخرى بحاجة إلى مثل هذه العلاقات في هذه الفترة من حياتها. ومن مظاهر هذه العلاقة بين الجانبين:-

١. إن سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) كانت بداية التقارب بين بغداد وأربل وذلك نتيجة لجهود الملك العادل (أخو ربيعة خاتون زوجة مظفر الدين) بمهمة

(١) مظفر الدين كوكبري: هو أبو سعيد ابن الأمير زين الدين علي بن بكتكين بن محمد، ولد بقلعة الموصل سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٤م) وتربى في أربل عند أتابكة مجاهد الدين قايمار، وصف بأخلاق عالية وشجاعة فائقة، وظل في خدمة صلاح الدين الأيوبي وحارب معه حتى ولاه إمارة أربل سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م) بعد وفاة أخيه زين وظل لميزانها حتى توفي سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، دار صادر- دار بيروت/ ٩٦٦م، ص٩٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ١٩٤٨، ص٢٧٦، وينظر: حسين، محسن محمد: أربل في العهد الاتاكي، (بغداد/ ١٩٧٦)، ص١٨٧ وما بعدها، طليمات، عبد القادر أحمد: مظفر الدين كوكبورى أمير أربل، (مصر/ ١٩٦٣)، ص٩ وما بعدها.
(٢) حسين، محسن محمد: أربل في العهد الاتاكي، ص١٥٢.

توسط لدى الخليفة الناصر حيث أوفد بدوره رسولا يحمل رسالة من طرفه إلى بغداد وبصحبه أحد أبناء أخيه مظفر الدين وقد استقبل الوفد بحفاوة وتقدير لدى وصوله مركز الخلافة، ودخل ممثل صاحب أربيل وقيل حبة (باب النوبي) ^(٣) وقدم اعتذاره لدى الديوان الخلفي، أما رسول العادل فتمه سلم رسالة إلى الخليفة طالبا العفو عن مظفر الدين لما يخص الفترة الماضية، وقد استجاب الخليفة لطلب الرسولين ^(٤) بتحسين الأجواء وإزالة ما يعكر صفو العلاقة التي تحسنت بعد هذه المبادرة.

٢. بعد أن أصبحت العلاقة ودية بينهما صار مظفر الدين يعمل تحت إمرة الخليفة وتوجيهاته، فبعد سنوات من تحسين العلاقة بينهما أي سنة (٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) كلفه الخليفة الناصر لدين الله للقضاء على التمرد الذي قام به المملوك (منكلي) ضد سيده (أوربك بن البهلوان) صاحب أنريجان وضد الخليفة، وأصبح خطرا يقلق أمن المنطقة ويهدد اتباع الخليفة ^(٥)، مما دعا الخليفة إلى إيجاد وسيلة للقضاء عليه، فحشد قواته وراسل صاحب قلاع الإسماعيلية (الحسن بن الصباح) ^(٦) وصاحب حلب الملك الظاهر (غازي) وصاحب مصر (العادل الأيوبي) وطلب منهم تقديم المساعدة إليه للقضاء

(٣) باب النوبي: وهي العتبة التي كان للسل والملوك والوفود يقبلونها إذا وصلوا بغداد (جواد، مسكني

وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، (بغداد/ ١٩٥٨ م) ص ١٥٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣، مطبعة السعادة (القاهرة/ ١٩٣٢ م)، ص ٨٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٢/ ٢٩٦، ٣٠١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والساهرة، ج ٦،

القاهرة/ ١٩٧٢ م) ص ٢١٢.

(٦) تحسنت العلاقة بين الخلافة العباسية والإسماعيلية في عهده وأصبح من استقاء الخليفة الناصر لدين الله

(ابن الأثير: الكامل ١٢/ ٢٩٨) دائرة المعارف الإسلامية ط ١٩٣٣ م.

مادة: الإسماعيلية، ص ١٨٩.

على المتمرد (منكلي)، فاستجابوا لطلبه بهذا الشأن، ثم بعث الخليفة الناصر الى مظفر الدين كوكبري يأمره بالحضور مع جنده وجعله مقدم العساكر جميعاً^(٧) وسار نحو همدان وجرى بينه وبين (منكلي) تصادمات عديدة تمكن مظفر الدين من هزيمته نهاية الأمر^(٨).

٣. وفي سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) كان هناك نوع من التعاون العسكري بين الخليفة ومظفر الدين عندما قام المغول بمهاجمة العراق ووصلوا إلى أربل فوجه الخليفة الناصر رسالة إلى مظفر الدين يبلغه فيها بأنه سيرسل له قوات كبيرة لقتال المغول وبحود (عشرة آلاف) جندي ويعينه قائدا لهذا الجيش، وانتظر مظفر الدين وصول تلك القوات إلا أنه تبين أنه لم يرسل له سوى (ثمانمائة) فارس^(٩) كدفعة أولى من جيش كبير ينوي الخليفة تجمعه، فأحجم مظفر الدين عن التحرش بالمغول خوفاً على جنوده من الإبادة وعدم تمكنه من مواجهتهم، ويحكي مظفر الدين خبره مع الخليفة فيقول: " لما ارسل الى الخليفة في مقاتلة التتار، قلت له: إن العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما اخذ من البلاء فامرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي^(١٠) فاقمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي

(٧) لين الأثير: الكامل ٣٠٦/١٢

(٨) لين تغري يردى: للنجوم ٢١٣/٦

(٩) للذهبي: مختصر تاريخ الإسلام، مخطوطة على لميكرولفم، محفوظة في مكتبة لدراسات العليا جامعة

بغداد، كلية الآداب برقم (١٨٠٣)، ورقة ٣٥١، البقي: مرآة الجنان، ج٤، (الركن/٣٣٩م)، ص ٣٧.

(١٠) طواشي: ممالك أي خدام الخليفة المقيرون (للتشدي: صبح الأعشى في صناعة الانشا ج٣، ص ٤٧٧)

وبالمسلمين^(١١). إن تجميع هذه القوات على الرغم من صغرها فإنها أفزعت المغول وأرغمتهم على الانسحاب فتقهقروا وأقاموا بعيداً". كما إن هذا التعاون ينم عن العلاقة الطيبة بين الخليفة الناصر ومظفر الدين كوكبري رغم تحريض بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل الخليفة ضده^(١٢).

طبيعة العلاقات السياسية بين المستنصر بالله^(١٣) وكوكبري:

كان الخليفة المستنصر بالله يريد جمع كلمة المسلمين وإقامة وحدة إسلامية تضم كل قوى وإمارات الأطراف التابعة للخلافة، نظراً لكونه جاء في فترة تفاقم فيها الخطر المغولي لذي بدأ يهدد أمن الخلافة وأطرافها الشمالية والشرقية، فإراد من ذلك تحسين علاقته مع كل جيرانه والذين من ضمنهم إمارة أربل في عهد أميرها مظفر الدين كوكبري الذي بدا هو الآخر يفكر بمثل هذه العلاقة وينتابه نفس الشعور بكيفية التصدي لهذه الأخطار التي تهدد مستقبل إمارته مما زاد في حاجته إلى الخلافة وتوطيد علاقته معها.

ومن أبرز مظاهر هذا التعاون والعلاقات السياسية بين الجانبين هي:

(١١) ابن الأثير: الكامل ٢٧٩/١٢ (يندر أن الخليفة الناصر لم يكن لديه جيش قوي دائم للتجهيز)

(١٢) ابن الأثير: الكامل ٤٦٢/١٢

(١٣) المستنصر بالله: هو خليفة السادس والثلاثون في سلسلة الخلفاء العباسيين، بويع بالخلافة سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) واستمرت خلافته حتى وفاته سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) (ينظر: الحموي، أبر النضال: التاريخ المنصوري (نسخة غير مطبوعة مصورة) نشرها بطرس عزيزا زينو، موسكو/ ١٩٦٣م، ورقة ٢٢-٢٦، بين الكازروني: مختصر لتاريخ، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد/ ١٨٧ ص ٢٥٨، الأربلي: خلاصة للذهب المسبوك نصحيح مكي السيد جلع، بغداد، ص ٢٥٨، ابن النقطتي: التفرخ في الآداب السلطانية والندول الإسلامية، ص ٢٦٧)

١. إن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ دأب دوماً على تشويه سمعة مظفر الدين كوكبري لدى الخليفة المستنصر بالله واتهامه له بأنه خرج عن طاعة الخلافة ومثولاً مع أعدائها من الخوارزميين والخراسانيين^(١٤)، مما عكس صفو العلاقة مع الخلافة بداية الأمر لولا أن الخليفة المستنصر غير موقفه تجاهه بعد أن تأكد من براءة مظفر الدين من هذه التهمة الموجهة له من قبل بدر الدين لؤلؤ، مما عزز الثقة وإزالة الشكوك بين بغداد وأربل وحسن الأجواء بينهما.

٢. ومما زاد في الثقة وتحسن العلاقة بين الجانبين حسنة الخليفة المستنصر بالله لامارة أربل من (جلال الدين منكبرتي) سلطان النور الخوارزمية، ومحاولته التعرض لها وضمها إليه، إلا أن الخليفة عقد معه تفقاً، أبرم سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) يقضي بعدم تعرض جلال الدين لامارات الأضراف التابعة للخلافة التي بضمنها امارة أربل^(١٥)، مما جعل الخلافة الملاذ الآمن لمظفر الدين لحمايته من هذا التهديد.

٣. ومن الدلائل الأخرى للعلاقة الطيبة مع الخلافة عباسية والاحتفاء بها من الأعداء الطامعين، ومنهم الملك (الاشرف موسى) صاحب دمشق الذي توجه إلى سنجار سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) يريد أخذ أربل، فاستجد مظفر الدين كوكبري بالخليفة المستنصر بالله لمنع الاشرف من ذلك، وبالفعل رسله الخليفة ونهاده فامتثل للأمر وامتنع عن ضم أربل^(١٦).

(١٤) ابن الأثير (ضياء الدين): رسائل ابن الأثير، تحقيق، أنيس مقدسي (بيروت/ ١٩٥٩) ص ٧١

(١٥) أنسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق، حافظ احمد حنفي (القاهرة/ ١٩٥٣)، ص ٣٠٤.

(١٦) مبط ابن الجوزي: مرآة للزمان في تاريخ الأعيان مج ٨، ق ٢، جند أباد، (الذكن، ١٩٥٢)، ص ٦٨٠،

الخشي: المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شكري محمود عبد

المنعم، (بغداد/ ١٩٧٥)، ج ٢، ص ٤٨٢.

٤. ومما زاد من حاجته إلى الخلافة أيضا ذكر ابن الأثير^(١٧) انه ظهر في سنة (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) الأمير (شمس الدين سوُّج) زعيم قبيلة (قشالو) التركمانية الذي اخذ يجمع أنصارا له ويوجههم للقيام بأعمال نهب وتخريب واخلال بأمن المنطقة الواقعة بين اربل وهمدان، فضلا عن تهديده لآمن اربل نفسها فتصدى لهم مظفر الدين محاولا سحقه والقضاء عليه إلا انه فشل مما زاد من قلق مظفر الدين على أمن ومستقبل امارته منه، مما دفعه إلى ضرورة توثيق علاقته بالخلافة العباسية لمساندته بالوقوف والتصدي لمثل هذه الأخطار.

٥. ومن مظاهر هذه العلاقة بين بغداد واربيل تعاونهما في الدفاع ضد عدوها المشترك الذي اخذ يهدد وجود كلا الطرفين وصار يشن غارات على أطراف الخلافة واربيل معا، مما يوجب التصدي له بكل الوسائل، ففي سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) وصل المغول إلى اربل بعد أن قتلوا الكثير من الأكراد والتركمان ودخلوها مما اضطر صاحبها مظفر الدين كوكبري أن يطلب المساعدة من امارة الموصل والخلافة العباسية لكن المغول عادوا إلى أنذربيجان بشكل غارة سريعة ولم يلاحقهم كوكبري^(١٨) مما يدل على انه لا يستغني عن الاستجداد بالخلافة العباسية على الرغم من إمكانياتها العسكرية المتواضعة في هذه الفترة.

ومن المسائل المهمة بين الجانبين مسألة مستقبل امارة اربل من بعد كوكبري الذي كانت تشغله هذه القضية قبل وفاته بسنوات لانه لم ينجب ولدا وريثا لدولته ولم يجد من يصلح لوضع امارته وشعبه في أيدي أمينة سوى الخليفة المستنصر

(١٧) الكامل: ٤٩٣/١٢، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج - ٤، تحقيق، محمد حسين ربيع

ط ١٩٧٢، ص ٣٠٦

(١٨) الكامل: ٥٠١/١٢، ابن واصل: المفرج ٣٢٨/٤

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ح ١، (القاهرة/ ١٩٥٦)، ص ٢٤١.

بالله^(١٩). ويبدو انه جرت بينه وبين الخليفة مفاوضات بهذا الشأن منذ سنة (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) وقبل زيارة مظفر الدين إلى بغداد في لتحرم من سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م). فقد ذكر ابن الفوطي إن الخليفة أرسل إلى مظفر الدين رسولين هما (محي الدين يوسف بن الجوزي وسعد الدين حسين بن الحاجب علي) دون أن يذكر سبب إرسالهما، ثم يذكر إن مظفر الدين سار معهما إلى بغداد في المحرم سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)^(٢٠)، وهي الزيادة المهمة التي توجت العلاقات السياسية ووطنتها بين بغداد واربيل، ومن المرجح أن مهمة لرسولين كانت تفاوضية وتتعلق بوضع اربل بعد وفاة مظفر الدين ووراثتها للمستنصر بالله. ولما تمت قواعد الاتفاق بينهما سار مظفر الدين بنفسه صحبة الرسلين حاملا مفاتيح اربل إلى بغداد لابلاغ الخليفة ما بنيته من تسليم امانة اربل وقلعها بعد وفاته للخليفة^(٢١).

أما عن مراسيم هذه الزيارة يضيف ابن الفوطي^(٢٢) انه عند اقتراب موكب مظفر الدين من بغداد استقبل على بعد فرسخ منها خارج أسوارها وكان من بين المستقبليين له نائب الوزارة (فخر الدين احمد مؤيد الدين النقي) وكذلك الأمراء والقضاة والمدرسين وجميع أرباب المناصب في البلاط الخيفي، ولما دخل الموكب بغداد ووصلوا (باب النوبي) ترجل مظفر الدين وقبل حنيتها، ثم توجهوا جميعا نحو دار الخلافة، حيث أمر الخليفة المستنصر بالله أن ينزل ضيفه في

(١٩) طلبات: مظفر الدين ص ٢٣٨/٢٣٩.

(٢٠) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تصحيح، مصطفى جواد، (بغداد/

١٩٥٥)، ص ١٩.

(٢١) سبط ابن الجوزي ٢٨١/٢.

(٢٢) ابن الفوطي: الحوادث، ص ٢٠-٢٣.

(قصر التاج) الذي يعتبر أحد أشهر قصور دار الخلافة ببغداد، وبعد أن استراح ضيفه دعاه الخليفة إلى مجلسه ، فحضر مع أمرائه وقبلوا الأرض جميعاً، وبعد أن رفعت الستارة سلم مظفر الدين على الخليفة وقرأ على مسامع الخليفة الآية (اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي)^(٢٣) ، وبنفس الوقت رد الخليفة عليه السلام وقرأ الآية: (انك اليوم لدينا مكين أمين)^(٢٤)، ويذكر اليونيني^(٢٥)، إن مظفر الدين صاحب معه كاتب انشأه وشاعر بلاطه (مجد الدين سعد بن إبراهيم بن حسن النشابي) الذي دخل معه إلى تخليفة وانشد بين يديه قصيدة مطلعها:

جلالة هنية هذا المقام تحيير عالم علم الكلام
كان المناجي به قائماً يناجي النبي عليه السلام

وبعد انتهاء هذه المراسم قدم الخليفة إلى صاحب اربل هدايا كثيرة تدل على اهتمامه به ومودته له وحسن علاقته به، ومن جملة ما سيقين وفرس بسرج ذهب وكنبوش^(٢٦)، ومشدة^(٢٧)، وسنير وراءه سنجق^(٢٨) مذهب^(٢٩)، ثم خرج مظفر الدين من الباب للقائمي المعروف (بباب التمر) بالمشرفة^(٣٠)، وقد قام مظفر الدين بزيارة العتبات الدينية في بغداد، وأقيمت له ولحاشيته انولائم الوفرة أينما

(٢٣) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية (٣)

(٢٤) القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية (٥٤)

(٢٥) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، حيدر ابد، النكن (١٩٥٤م) ص ١١٧

(٢٦) الكنبوش: البردعة

(٢٧) المشدة: مما يزين به الفرس في عتقا (الحواشي ص ٢١)

(٢٨) السنجق اللواء (القلشندي) ص ٤٥٨ / ٥

(٢٩) الحواشي، ص ٢١

(٣٠) باب التمر: وباب سوق التمر (جوف مصطفى وسوسة، احمد: دليل خارطة، بغداد، ص ١٥٨)

العلاقات السياسية بين الخليفة المستنصر بالله و مظفر الدين كوكبري حسين حليس جاسم

حلوا^(٣١). ثم رتب له بعد ذلك لقاء آخر بالخليفة قبل الأرض في حضرته وتلا الآية: (يا ليت قومي يعلمون مما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)^(٣٢)، وتباحث مع الخليفة بشأن الأمور المهمة بين بغداد واربل، ولما أنهيت المقابلة توجه إلى حجرة الخلع، قدمت له الهدايا مرة ثانية ثم عاد مظفر الدين إلى اربل بعد أيام منها زيارته لبغداد التي استغرقت عشرين يوما^(٣٣)، بعد أن تشرف بمقابلة الخليفة مرتين، وهي فرصة عظيمة تمناها الكثير من حساد مظفر الدين^(٣٤) وقد رافقه في عودته رسولا الخليفة محي الدين بن الجوزي، وسعد الدين حسن بن الحاجب علي ومكثا في ضيافته فترة ثم عادا إلى بغداد و أعلنّا للخليفة أن مظفر الدين حلف أمراءه واعيان دولته على طاعة الخليفة وتسليم اربل إليه بعد وفاته^(٣٥). وقد تمخض عن هذه الزيارة عدة إجراءات سياسية وعسكرية هامة منها:

أ- حصل نوع من الاتفاق بين الخليفة ومظفر الدين على توريث الخليفة لامارة

(٣١) للحواث، ص ٢٢

(٣٢) القرآن الكريم، (سورة يس) الآية (٢٧)

(٣٣) للحواث، ص ٢٢

(٣٤) ينكر في سنة (٦٢٣هـ / ١٢٣٥) وصل الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي صاحب الكرك إلى بغداد

فخلع عليه للخليفة و أكرمه إلا أنه منعه في بداية الأمر من الاجتماع به فنظم قصيدة عتابية رائعة للخليفة

لمستنصر بالله على تفضيله مظفر الدين كوكبري ومقابلته، جاعني مطلعها:

وبأتيك غيري من بلاد قريبة له من الامن فيها صاحب لا يجانبه

فيلقى دنوا منك لم تلق مثله ويحظى ولا أحظى بما لنا طائبه

(رشيدي، ناظم: داود بني عيسى الأيوبي حياته و أدبه، أطروحة دكتوراه غير منشورة من كلية الآداب جامعة

بغداد / ١٩٨١، ص ٥٤)

(٣٥) للحواث، ص ٢٢

اربل وقد حلف مظفر ثنين أمراءه واعيان بلده على طاعة الخليفة وتسليم اربل له بعد وفاته^(٣٦)، وتم ذلك بحضور رسولي الخليفة المذكورين اللذين كانا في ضيافته وحضرا هذا الأجراء مما يدل على إن هذا الاتفاق قد تم في هذه الزيارة ويؤكد هذا سبط ابن الجوزي^(٣٧) وقتئذ: بان مظفر الدين عندما قام بزيارة بغداد كان معه مفاتيح اربل وقلاعها وذلك لتسليمها إلى الخليفة إعلانا منه بان المدينة والنقلع التابعة لها أصبحت للخليفة بعد وفاته.

ب- وعلى اثر هذه لزيارة أيضا فان مظفر الدين صار في ولائه تابعا للخلافة العباسية واقتصر في خطبته على الخليفة المستنصر بالله^(٣٨)، مما يدل على تبعيته وولائه الكامل للخليفة.

ج- إن هذه الزيارة وضحت العلاقة بين بغداد واربل وزادت من روح التعاون العسكري بينهما ضد غزوهم المشترك المغول، وظل مظفر الدين على الرغم من شيخوخته أحد القادة ثنين يعتمد عليهم الخليفة في المهمات الصعبة أكثر من غيره، ويتمثل ذلك في سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) عندما وصل المغول إلى منطقة شهرزور باتجاه اربل فجهز المستنصر الجيوش وأمر عليهم (جمال الدين قشتمر) بعد أن استنجد بصاحب اربل الذي توجه بجيشه للانضمام إلى جيش الخلافة لمواجهة المغول الذين انسحبوا بدون مواجهة^(٣٩)، إلا أن الجيشين واصلا السير باتجاه المغول، ولجئتم الجيشان الخلفي والاربلي عند قلعة انكرخيني

(٣٦) لحولث، ص ٢٣

(٣٧) سبط ابن الجوزي: المرة ٨ / ٦٨٠ - ٦٨١

(٣٨) للمرة ٨ / ٦٨١

(٣٩) لحولث، ص ٢٧، للنهي: دول الإسلام، ٢، تحقيق، فهم محمد شلتوت ومحمد عبد السلام فراميد

١٩٧٤، ص ٦٣٥، ابن كثير: البداية ١٣ / ١٣٥

(كركوك) و خيموا عندها بانتظار المغول، وقد ظلوا ينتظرون طويلا حتى سألوا الانتظار دون عودة المغول إلى المكان أو لتصادم معهم كما أن طول الانتظار كان سببا في حدوث تصادمات بين جند الخليفة وجند اربل أسفر عنه وقوع بعض قتلى والجرحى بين الجانبين وكادت النتيجة تتحول إلى مأساة لولا تدخل (جمال الدين قشتمر) المتسم بالحكمة والتعقل فانتشل الموقف في اللحظة الأخيرة وهذا الأمر دون تحويلها إلى حرب تقع فيها المزيد من الخسائر حيث دخل إلى خيمة مظفر الدين ووجده متهينا ويحث جنده للقتال ضد جند الخليفة فاخذ يهدئ من غضبه وثورته ويعاتبه على موقفه المتسرع مع نوع من التوبيخ والملاطفة حتى خجته وقبح خطورة الموقف والوضع المتفجر حتى أقنعه وعاد إلى صوابه و أنهى بذلك هذه الفتنة ووضع حدا لتصادم الموقف^(٤٠)، ثم واصلت الحملة سيرها لمتابعة المغول باتجاه شهرزور التي كان يهددها تغول حتى وصلوا عند (موغان)^(٤١)، فزادت متاعبهم وصارت حاجتهم ماسة إلى ثماء إلى الحد الذي مات فيه بعض الجنود من العطش فضلا عن مرض ثم بمظفر الدين^(٤٢)، بحيث لم يتحصل الاستمرار في مصاحبة الحملة وربما يعود ذلك إلى كبر سنه وشيخوخته لانه قد بلغ الثمانين من عمره، فاعلن رغبته في العودة إلى اربل وعدم قدرته على مواصلة سير الحملة فطلب من (جمال الدين قشتمر) أن يبعث معه (شرف الدين علي والأمير سعد الدين حسن بن الحاجب علي) ويرافقانه في عودته إلى اربل

(٤٠) للحولث، ص ٢٨

(٤١) موغان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة يسكنها التركمان في بلاد انريجان (ياقوت) معجم البلدان ج ٥،

ص ٢٢٥

(٤٢) يتكرر ابن الفوطي في الحولث صفحة ٢٩، ان مظفر الدين اظهر المرض الشديد وزاره جمال الدين

قشتمر فرجده ملتي على ظهره.

ليسلم إليهما قلعة (خفيتان)^(٤٣) ثم يتسلما بلدة اربل بعد موته، فوافق (جمال الدين) على طلبه، وعاد كوكبري ومعه الرسولان المذكوران، كما إن (جمال الدين قشتمر) عاد بجيشه هو الآخر إلى (الكرخيني)^(٤٤) ثانية، وربما يكون سبب عودته ليكون قريبا من اربل للانتظار في حالة موت (مظفر الدين كوكبري) وتسلم امارته. إلا أن الرسولين المذكورين عادا إلى (الكرخيني) أيضا بعد أن امضيا فترة قصيرة في اربل وابلغا (جمال الدين قشتمر) أن (مظفر الدين) ليس مريضا وفي أتم صحة كما اتهماه بأنه متحايل ويدعي المرض سببا للعودة، وإذا كان كلام الرسولين صحيحا حول أسباب عودة (مظفر الدين) وانسحابه من ميدان القتال إلى مدينة اربل بهذا الطريقة فإن ذلك ينم عن تراجع كوكبري وعدم مصداقيته للخيفة في ضم اربل، ولكن في ضوء المعلومات المتوافرة لدينا عن شخصية (مظفر الدين) وبما فيه من صفات الصدق والتدين والشجاعة تثبت عكس ذلك وتضعف لدينا احتمال تحايله وخيانتة للخليفة، لكن ربما كان سبب عودة (مظفر الدين) وانسحابه من ميدان القتال أن يكون مريضا فعلا لأنه كبير السن وتجاوز عمره الثمانين، ولن تتحمل قابليته مثل هذه الأعباء من التعب والعطش، أما عن حالة شفائه من مرضه فمن الطبيعي أن يستعيد صحته بعد أن توفرت له أسباب الراحة والعلاج في امارته اربل، ويمكننا تأييد صحة مرضه وعدم مقاومته للتعب هو أنه توفي في السنة اللاحقة (٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)^(٤٥) مما يخفف عنه نية التحايل، أما ما يخص عدم تسليمه اربل للرسولين، فإن ذلك يعود إلى الاتفاق

(٤٣) خفيتان: قلعتان عظيمتان من أعمال اربل (ياقوت: معجم ٢٨٠ / ٣)

(٤٤) الحواشي، ص ٢٩

(٤٥) الحواشي، ٤٤

بتسليم اربل بعد وفاته، ولكن يبدو أن مظفر الدين عندما شعر بتحسن صحته أثر تأجيل الموضوع إلى فترة لاحقة، ولما كان الرسولين على عجلة من أمرهما ويريدان تسليم الأمارة حالا أو في فترة قليلة مما دعاه إلى تسريحهما^(٤٦)، وعودتهما إلى الكرخيني وهما ساخطين على مظفر الدين.

ولكن مهما يكن من أمر فإن اربل ضمت إلى دولة الخليفة بعد وفاة مظفر الدين (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ولكن ليس بطريقة سلمية وحسب الاتفاق وإنما كان ضمها بالقوة مع حصول إراقة دماء، لأنه كان في قلعة اربل خادمان لمظفر الدين، ولما اشتد به المرض أرسل لكل من الخليفة المستنصر و عماد الدين زنكي (زوج ابنة مظفر الدين)، والملك الصالح نجم الدين أيوب واخبراه بقرب وفاة مظفر الدين واذرا كل منهم بأنه (من سبق إلينا كانت منتا عليه)، إلا انهما كانا مع نجم الدين أيوب وأخذوا يحثانه على الإسراع بتسليمها، فكان جيش الخليفة المستنصر بالله أسرع الاثنين في الاستيلاء عليها، إلا أن الخادمين رفضا تسليمها إلى جيش الخليفة وأوصدا أبواب المدينة لمنع دخول نائب الخليفة إليها، فضرب الجيش الحصار عليها ودار القتال بينه وبين حامية القلعة انتهت بهزيمة الحامية ودخولها في مملكة الخليفة نهاية الأمر^(٤٧).

ويمكننا أن نستنتج من كل ما تقدم انه كانت هناك علاقات سياسية واضحة

(٤٦) للحوادث، ص ٣٠

(٤٧) للحوادث، ص ٤٤ - ٤٨، سبط ابن الجوزي: المرأة ٨ / ٦٨٣. (ينفرد أبو الفداء في كتابه المختصر في

أخبار البشر، ج ٣، طبعة مصر صفحة ١٥٣ أن اربل ضمت إلى دولة الخليفة سلميا لأن مظفر الدين ليس له ولد فأوصى بضم اربل وقلاعها إلى دولة الخليفة المستنصر بالله الذي تسلمها بعد موت مظفر الدين.

ويتنظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (للقاهرة/ ١٩٦٧م)

ج ٤، ص ٨، طلبات: مظفر الدين كوكبري ص ٢٣٩.

بين الخليفة المستنصر بالله مظفر الدين كوكبري وهي استمرار تلك العلاقات منذ زمن الخليفة الناصر لدين الله، على الرغم مما أصابها من بعض حالات التفكور أحيانا، وهي حالة طبيعية في العلاقات السياسية بين الدول التي تتسم دائما بالتغيير وعدم الثبات، كما إن هذه العلاقات كانت طيبة وودية وفيها نوع من التعاون السياسي والعسكري، رغم تحريض أمير الموصل (بدر الدين لؤلؤ) للخليفة ضد مظفر الدين ومحاولته تعكير صفو علاقته مع الخلافة العباسية.

وذلك لأطماعه الخاصة بإمارة أربل، كما أن هذه العلاقات توجت بزيارة مظفر الدين لبغداد بداية سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) نتج عنها عدة إجراءات سياسية وعسكرية بين الجانبين ومن بين أهمها الاتفاق على ضم إمارة أربل إلى دولة الخليفة العباسي في بغداد، بعد وفاة مظفر الدين كوكبري، الذي حلف أمراءه وبحضور رسولي الخليفة على ذلك، إلا أن النتيجة النهائية كانت ضم أربل بالقوة وليس بطريقة سلمية ضمن الاتفاق المذكور، ولم تذكر المصادر بأن مظفر الدين قطع علاقته بالخلافة العباسية قبل وفاته أو أنه تخلى عن تعهده هذا، مما يجعلنا لا نلتقي كن اللوم على مظفر الدين بعدم ضم أربل سلميا لأنه توفي سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢) وترك اتفاقا يوصي بتسليم الإمارة إلى دولة الخليفة بعد وفاته، وكان الأمر متروكا لمن كان بعده في إدارة أربل لتنفيذ الاتفاق أو عدم تنفيذه، فكانت المحصلة النهائية عدم التزام الخادمين بالاتفاق وتحملهما مسؤولية إرثه اندساء في ضم أربل إلى دولة الخليفة المستنصر بالله بالقوة.